الفصل الخامس

من دمشق إلى تدمر

طول هذا المسلك نحو ٢٣٠كم، معبد حتى القطيفة، جيد حتى جيرود، ثم يصير مجازاً يعد حسناً يغادر دمشق من طريق حمص. ويجتاز ٣٩ كم من دمشق إلى القطيفة. فإذا وصل إلى القطيفة ينحرف في أولها إلى اليمين ويسلك الطريق الذاهبة نحو الشرق. ويجتاز حقولاً مزروعة بكروم العنب ويترك على يمينه سلسلة جبال تفصل بين سهل القطيفة وبين مزرعتي الرمادة والمعيصرة الواقعتين بين قريتي عدرا والضمير. ويترك أيضاً على يمينه مجازاً للدواب يشق السلسلة المذكورة ويهبط نحو الضمير.

في الكم ٤٣ المعضمية، قرية كبيرة، سكانها ٢٥٠٠ مسلمون، وفيها مسجدان، وفي الكم ٥٣ الرحيبة، قرية كبيرة، سكانها ٣٦٠٠ مسلمون، وفيها ثلاثة مساجد في غربي هذه القرية على أكمة عالية قبر أبو سعيد الخدري سعد بن مالك الأنصاري كان من أعيان الصحابة شهد الخندق وبيعة الرضوان ومات في دمشق سنة ٧٤هـ وفي الكم ٦٤ جيرود، قرية كبيرة حسنة، سكانها ٢٤٠٠ مسلمون، مركز ناحية وكانت لمضي بضع سنوات مركز القضاء، إلى أن استبعدوها فنقلوه إلى القطيفة، ويظن أنها جرودا المذكورة في دليل انطونين، وقد ذكرها ياقوت اشتهرت بعنبها الدربلي الذي ينتج منه زبيب فاخر، وفي الجنوب الشرقي لجيرود بحيرة جيرود، وهي مستنقع عظيم مالحة يستخرج منها كثير من الملح، وبعد جيرود تنتهي الطريق المعبدة ويسلك مجازاً صالحاً لسير السيارات في كل الفصول الجافة. وبعد جيرود يجتاز سهلاً فسيحاً فيه كثير من قنوات الماء التي يسقون منها حقولهم، ولكل منها فتحات كواكب في ابعاد متساوية (كل ٢٠ متر كوكب) وثمة آبار عليها غرافات لسحب الماء وري الزروع أيضاً. وبعد جيرود ضيعة اسمها، العطنة، سكانها ٣٠٠ مسلمون وفيها مسجد وخان قديم استعيرت أحجاره في الغالب من حصن روماني قديم كان في هذه البقاع. ثم يدخل المجاز في قيعان رملية جرداء صف بها من جانبيها الشمالي والجنوبي سلسلتا جبال جرداء موحشة،

اسم الشمالية جبل حاجولة وجبل غزالة والجنوبية جبل التوف وقد فتح في سنة ١٩٤٠ في جبل حاجولة طريق للسيارات (طوله نحو ١٥ كم) يصل النبك بالناصرية وقلمون الأعلى بالأسفل، والمجاز رديء، في الكم ٧٥ قرية صغيرة الناصرية، سكانها ٣٥٠ مسلمون وفيها مسجد، وهنا منتهى العمران وأول البادية، وفي الكم ٨٥ خان الجلاجل وهو خراب، في شرقه وقرب المجاز أطلال سور قديم، في الكم ٨٨ خان الأبيض، وهو أيضاً خراب.

في الكم ١٣٠ القريتين، (بريد، هاتف، مخفر درك) قرية كبيرة حسنة، سكانها ٢٥٠٠ ثلثاهم مسلمون والبقية سريان كاثوليك ويعاقبه، مركز ناحية وكانت قبل بضع سنوات مركز قضاء، وفيها مسجد وكنيسة لكل طائفة نصرانية، والقريتين هي في دليل نويتسيا، تحيط بها بساتين ملتفة زاهية، بفضل عين ثرة تتفجر من الجبل. وفيها كروم حسنة. وفي دار أحد وجهائها فياض آغا نقوش وكتابات تدمرية جديرة بالزيارة. ويداوي البدو هنا الممسوسين بطريقة الغل والقيد، وهي طريقة تشبه ما يعمل في دير القديس انطونيوس في قزحيا شمال لبنان.

ويدور المجاز الجديد حول القرية في غربها ثم في الشمال الشرقي يصعد نحو آخر تلعات هذه الهضبة القفراء، وبعد ٠,٥ كم يعبر وادياً. في الكم ١٣٣ يعبر وادياً عريضاً، ثم يسلك برية فسيحة قفراء مطردة المناظر، وثمة سلسلة جبال تمتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، تدعى على التوالي جبل الشرق وجبل الرواق وجبل الحجل وجبل الطويل.

في الكم ١٥٠ يمر من قرب القناة القديمة التي كانت تروي تدمر.

في الكم ١٥٣ أطلال قصر الحير، ويظهر برجه الشاهق عن مسافة بعيدة، (في هذه الأطلال خان، في هذا الخان نزل الأمير ركن الدين منكورس عتيق فلك الدين سليمان أخ الملك العادل من أمه، المتوفى سنة ٥٥٩ والمدفون في مدرسة الباقية في حي الأكراد بصالحية دمشق. ذكر القلقشندي هذا الفندق أو الخان في صبح الأعشى، ليس الرابع ولعله غيره ص ٣٨١ في كلامه على مراكز البريد قال: وأما طريق الرحبة - يعني رحبة مالك بن طوق - فمن القطيفة المقدمة الذكر إلى العطنة - قال في التعريف وليس بها مركز وإنما بها خان تفرق به صدقة من الخبز والأحذية ونعال

الدواب . إلى جلجل ثم منها إلى المصنع ثم منها إلى القريتين، آه ويزيد العمري في كتابه التعريف أن العطنة كانت إحدى مراكز المناور لرفع النار في الليل والدخان في النهار للإعلام بحركات التتار إذا قصدوا البلاد لحرب أو غارة فكان.

ينور بعانة على شط الفرات ثم يصير التنوير بعدة مراكز إلى أن يرى من العطنة فيرفع فيها فيرى بثنية العقاب ويرفع فيها فيرى بمئذنة العروس بدمشق ويرفع فيها لما حولها إنذاراً للرعايا، ذكر ياقوت: جليجل تصغير جلجل، منزل في طريق البرية من دمشق دون القريتين بينه وبين دمشق مرحلتان لمن يقصد الشرق به خان رأيته غير مرة. و (فندق العطنة) بناء مربع مساحته نحو ٣٠×٣٠ م، طبقته العليا مهدمة والسفلى سالمة كما كانت قديماً. وتحيط به رواقات معقودة على جدران ضخمة من جهاته الأربع وللفندق باب واحد قبلي فخم وعن يمين هذا الباب ويساره من الخارج وقفية هذا الفندق ونظامه الداخلي واسم مهندسه وبانيه وهذا الفندق مستعمل اليوم لربط الدواب ووضع الأقذار فخرب بعد أن كان مأوى أبناء السبيل من المسلمين يطعمون ويكسون وتتعل دوابهم (عن مقال في مجلة التمدن الاسلامي سنة ٤ج٤) للشيخ دهمان وكتب ٩٤٠/١٢/٣. أطلال مختلفة، قد امتدت في مساحة نحو كيلو متر من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي، ففي الشرق أولاً آثار سور طوله ٥٠ متراً، وفي جهة الشمالية باب عليه عتبة جميلة (ذرعها ٤.٢٩× ١.٠٥ متر) تدمرية الشكل قد زخرفت بأوراق الشجر مع أنواط لباخوس وإله الخمر أبيه وسيفن إله الدعابة، ولا تزال هذه العتبة في مكانها فوق دعائمها.

وفي الجبهة الغربية من هذا السور برج شاهق الارتفاع إلى ١٦ متر، بابه في الجهة الشرقية ينفتح في داخل السور، وهو بناء نصراني بدليل وجود صلبان بيزنطية زينوا بها طبقته العليا، ومنها صليب ملقى بين الأحجار البلوكات الضخمة في الجنوب وإلى في جدرانه القواطع الثلاثة باقية في الجهة الغربية، وكان لهذا البرج ثلاث طبقات.

وفي الوسط وعلى بعد ٦٠٠ متر من غربي البرج حفر صهريج مربع واسع (٦٦ متراً) له جدران مبنية بالحجر وتأتي إليه الماء بقناة واسعة عرضها ١.٠٥ وعلى جدرانها الداخلي كذلك وحول هذا الصهريج يمتد من الجنوب الشرقي إلى الشمال

الغربي تالوس من التراب نشأ على ما يظهر مما استخرج أثناء حفر الصهريج أو تعزيله . ثم على بعد ١٥٠ متراً في الغرب سور مربع، طوله ٧٠ متراً مرسوم على الأرض. له باب تدمري الشكل (٢٨١ متر) فيه زخرف من النقش البارز فقط، وهو يفتح نحو الشمال، وعليه كتابة عربية كوفية جميلة من عهد الخليفة هشام الأموي سنة ١٠٧هـ /٧٢٧/ ويظن أن هذه الأطلال منشآت زراعية تعود لاسعد عهود تدمر، في القرن الثالث وينبغي أن لا تخلط هذه الخرائب مع خرائب أخرى تدعى (قصر الحير) وتقع في الشمال الشرقي لتدمر).

عودة: تستمر الطريق في التدرج نحو الشرق وسط سباسب قفراء حتى تدمر هنا مفرق عليه الارقام الآتية: تدمر ٣٠ دير الزور ٢٥٠ قريتين ٧٥ جيرود ١٤٠ دمشق ٢٠٠ حمص ١٣٥ في الكم ١٩٥ عين البيضاء. خان قديم، وهنا ملتقى الطريق الذاهبة من تدمر إلى حمص وهذه العين تنشأ من بئر ذي ماء أجاج، (لابد من حبل ودلو لنشله) في قربه خان قديم مهجور.

لا يعرف إلا القليل عن تاريخ تدمر في الألف الأول السابق للميلاد. إلا أنه بعد أن انتقلت إلى يد السلوقيين الذين اخذوا بلاد الشام الشمالية بعد اقتسام ممالك الإسكندر عادت واستردت استقلالها في عام ٦٤ ق.م، حينما جاء الرومان وجعلوا بلاد الشام ولا ياتهم، وفي سنة ٤٠ ق.م كانت تدمر غنية إلى درجة جلبت عليها شهوة الطمع عند أنطوان فجرّ عليها حملة لنهبها ولا يظهر أنه بُدئ في تحصينها من ذلك الحين، وفي الواقع، حينما شعر سكانها بالخطر، احتاطو للأمر فأخلوا مدينتهم ونقلوا خزائنهم إلى ضفاف الفرات.

ومن تدقيق الكتابات والخرائب يظهر أن القرن الأول والثاني كانا من أسعد القرون في تاريخ تدمر، وأن كثيراً من المباني الفخمة قد شيدت خلالهما وفي سنة ١٢٩ زارها دريانوس تدمر وسماها هادريانا، وقد امتدت سلطة روما في زمن على تدمر وكان أن جمعت جنوداً متطوعة معاونة أشهر كتابها تلك التي دعيت باسم الرماة التدمريين على أنه لم تأخذ تدمر اسم مستعمرة رومانية إلا في عهد سبتموس سيفروس سنة ٢٠٠.

وفي أوائل القرن الثالث لمع اسم أذينات(أذينة)، وقد لعب أعقاب هذا الرجل دوراً عظيم الشأن في تاريخ تدمر فأول ذلك أنه سنة ٢٣٠ كان الأول بينهم شيخاً في سناتوروما وحكم عليه بالموت بعصيانه. وابن هذا حيران لقب في إحدى الكتابات المؤرخة في سنة ٢٥١ بلقب (أمير تدمر) وجاء أذينات ثانٍ وهو ابن حيران، وحاز سنة ٢٥٨ شعار القنصلية وصار زوج زنوبيا الشهيرة، وقد كان من أكبر أعوان الرومانيين، وبعد هزيمة واسارة والاريانوس حارب بشجاعة سابور وطرده إلى وراء الفرات. وقد عهد إليه القيصر كاليانوس قيادة الجيوش الرومانية في بلاد الشام، فأحسن هذه القيادة من سنة ٢٦٢ إلى ٢٦٤ وفتح ثانية مزوبوتا ميا حتى طيسفون وقد كافأه الإمبراطور أولاً بلقب (دوق) ثم بلقب (إمبراطور) والكتابات الأثرية تذكره بعنوان (ومصلح كل الولاية) وهو نفسه، مع اعترافه بسيادة روما.

وفي شمالي هذه العين على بعد ١٢ كل يمتد جبل اليتاس وجبل الطرفا والجبل الأبيض، سمي بذلك لبياض صخوره الكلسية وفيه بضعة كهوف ومدافن أثرية، وفي جنوبها على بعد ١٥ ـ ١٨ كم (لجبل لبتار) يمتد في خطوط مدورة.

وفي الكم ٢٠٨ على بعد ١.٥ كم من الطريق نحو الشمال يرى ثلاث قواعد حجرية تسمى (الكراسي) وهذه مذابح تدمرية، مكرسة لإله غير مسمى، في تاريخ ١١ مارس سنة ١١٤ ميلادية، من قبل أربعة خازني المال في تدمر وهي مصفوفة على شكل مثلث، الاثنان منها في الجنوب مرتفعان نحو ١.٦٥م وذرع قاعدتهما من أسفل ١.١٦× ١.١٨ متراً وواجهتهما الشمالية تحمل كتابات يونانية وتدمرية تحيط به نقوش أريد بها الإشارة إلى الصواعق. ورأي أحد المستشرقين في النقوش البارزة في الجهة الغربية إشارة سنبلة قمح والبارزة في الجهة الشرقية شجرة مع جذورها. وكلا النقشين تحملها يد واحدة. وفي المذبح الشمالي وهو أسفل من غيره وبعضه خراب مازال يظهر أرجل مائة قربان أو مذبح وكتابات تشبه التي تقدم ذكرها.

وهذا المكان المقدس إذا ربما شيد لتخليد ذكرى غرس غابة أو بستان أشجار وللشروع باستغلال البرية المجاورة وذلك في عيد الربيع سنة ١١٤.

في الكم ٢١٠ بئر طراف، وهو حديث، في الكم ٢١١ يهبط الطريق قليلاً ويدور حول الأعضاد الأخيرة من جبل الطمار في الشمال، وجبل الحيانة في الجنوب،

ثم يجتاز مستنقع بئر أبو الفوارس، في الشمال الغربي على بعد ١٢ كم مزار باسم شيخ بني هلال، وثمة عن بعد تلعات متطاولة يقال إن في قممها رجوم أحجار قد سدت الأفق الشرقي، فهذه هي أبراج المدافن.

في الكم ٢١٦ ترى عند منعطف المجاز أبراج المدافن الأولى لمقبرة تدمر الغربية (قبر ماليكو سنة ٧٩ ـ ٨٠م)، وهنا يكون السائر قد دخل في وادي القبور فإذا ما خرج من هذا المضيق الضيق تظهر فوراً خرائب تدمر بكاملها ففي الوسط، الكتلة المذهبة لهيكل الشمس الكبير تبرز من وسط دور القرية القديمة، وفي الشمال قلعة ابن معن الجاثمة على أكمة صخرية مستدقة، وفي الجنوب في سهل مسطح العين الكبريتية وقد وردت عليها كثير من القطعان.

في الكم ٢٣٠ تدمر، يصل المجاز الذي يخترق الخرائب إلى أمام السراي والمباني العسكرية والفنادق الوطنية.

تدمر

طرق الوصول ـ من حمص ١٦٥ كم، من دمشق ٢٣٠، من دير الزور ٢٢٠ كم.

تدمر ـ مدينة قديمة خربة، قد قل سكانها فصارت الآن بسبب عددهم الضئيل قرية بسيطة، وهم أعراب متحضرون التف معظمهم ضمن أسوار هيكل بعل القديم. إلا أن تدمر ما برحت تحوي على أوسع وأجمل مجموعة الخرائب الموجودة في بلاد الشام، وهذه الخرائب تمتد في بقعة عظيمة، علوها ٤٠٥ أمتار، ووسط بادية الشام القفراء. وفي سفح آكام طباشيرية تتجه من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، وتنفصل بصورة جد عجيبة عند منتهى تلك الأكمة الصغيرة الجبلية المقطوعة قطعاً جيداً، وهذه الأكمة ذات منحدرات جرداء ومخربة، وفي هذه المنحدرات انتشرت أبراج مدافن، وعلى أعلى قمة في تلك المنحدرات جثمت قلعة عربية.والنجد القليل الارتفاع الذي كانت بنيت المدينة القديمة فوقه يهبط بانحدار خفيف من قاعدة هذه الآكام وينفتح إلى ما لا نهاية له نحو الجنوب ونحو الشرق في أفق البادية الترابية الأطراف.

وقد كانت تدمر تتمتع في القرن الثاني والثالث الميلاديين بأقصى حدود السعادة المادية وذلك بحكم أنها كانت نقطة المرور والتموين للقوافل القادمة من ما بين النهرين والحاملة إلى سواحل البحر المتوسط ثروات بلاد آسيا وبحكم أنها كانت مستودعاً زاخراً بكل أنواع السلع والبضائع، ومركزاً فعالاً للتعامل الذي كانت تجتمع فيه كل أجناس الشرق، وقد مكنت هذه المزايا تدمر أن تجتاز دوراً ذا إنتاج سريع في ساحة الفنون، وقد أسبغت كثرة الزخرف التي ترى فيها على هذا الدور خاصية ممتازة لها مكانتها العظمى في تاريخ الحضارة.

وإذا صعد الزائر إلى قمة الأكمة التي عليها قلعة ابن معن يحيط نظره بكل الخرائب على مدى اتساعها على أن هذه أحسن موقع يرسخ صورة بتلك الخرائب في الذهن هو على قمة جبل (م) الذي في جنوبي وادي القبور فمن هذا الموقع يمكن أن يمتثل الناظر - دونما حاجة لإتعاب الفكر - كيف كانت حالة تدمر القديمة، وكيف كانت تمتد أبنيتها الفخمة وسط هذه الغراس والزروع التي كأنها لطخة خضراء وسط هذا الانفتاح الكئيب لهذه الرمال.

في تدمر فندق أوروبي باسم زنوبيا، وفنادق أخرى وطنية رديئة - وبعد أن كانت تدمر في معزل جد بعيد، غزتها السيارات وجلبت لها حركة وحياة حديثتين. وقد هدمت الحكومة دور الأهلين التي كانت حول هيكل الشمس وبنت لهم قرية حديثة خارج السور وأجبرتهم على السكن فيها.

التاريخ: يعود اسم تدمر إلى العهد اليوناني الروماني وقبلاً كانت تدعى تدمر، وهذا الاسم السامي ظل مستعملاً حتى يومنا هذا.

ليس لدينا أي معلومات قطعية عن منشأ تدمر الأصلية ولا عن تاريخها، نسبة بنائها إلى النبي سليمان بن داود نشأت عن قراءة مغلوطة للعهد القديم (سفر الأيام) ففي الواقع، قد ذكر في كتاب الملوك وكذلك في كتاب المؤرخين اسم تامور في جنوبي حبرون ولم يذكر قط اسم تدمر ومثل ذلك أيضاً لا يمكن الاعتماد على مزاعم المؤرخين البيزنطينيين الذين درجوا خبر نهب تدمر من قبل نبوخذ نصر في زحفه على أورشليم، لفقدان القيود الموثوقة. وفي الحقيقة أنه من المحتمل أن نقبل أنه في زمن عريق في القدم استقرت طوائف من البشر قرب ينابيع هذه الواحة، إلا أنه

حتى الآن حادثة واحدة فقط هي صحيحة، وهو أن وجود تدمر قد شهدت به منذ سنة ١١١٥ ـ ١١١٠ بكتابين لتفلات فلا زار الأول، قيل فهيما أن بلدة تدمر في مملكة العموريين.

كان يلقب نفسه (ملك) وكان يحكم فعلياً كل الشرق الروماني، ماعدا مصر وآسيا الصغرى. وقد مات حيران سنة ٢٦٦ مذبوحاً في اسا (حمص) هو وابنه الأكبر هيران معاً.

وقامت أرملته زنوبيا تحكم البلاد بالنيابة عن ابنها الثاني (وهب اللاة) إلا أن كاللليانوس رفض أن يمنح إلى وهب اللاة الألقاب المعطاة إلى أبيه أذينة إلا أن الملكة زنوبيا لم تخش بتاتاً من الدخول في النزاع مع روما حتى أن جيوشها انتصرت على هر اكليانوس الذي حاول أن يسترد الولايات المفتحة حديثاً. وكان يساعد زنوبيا وزيرها الأول لونجين، فاستطاعت أن تثبت رجحان وسيطرة تدمر، وفي سنة ٢٦٩ حينما كان كلوديوس يدافع هجمات قبائل الغوط، ساقت جيوشها بقيادة زبدا وافتتحت بلاد مصر وآسيا الصغرى. وفي سنة ٢٧٠ وصلت الجيوش التدمرية إلى بيتينا (على ساحل البحر الأسود) وعقد أورليانوس خليفة كاللليانوس معاهدة، أقربها بألقاب وهبة الله. ولكن المنح الجليلة التي أعطاها الإمبراطور المذكور لم تكف مطامع الملكة زنوبيا ففي سنة ٢٧١ تلقب وهبة الله بلقب (أوغست) ونادى باستقلاله وضرب سكة فيها أمه.

وعلى هذا جهز الإمبراطور أورليانوس جيشاً عظيماً لإخضاع تدمر وحينما كان يروبوس يسترد مصر تقدم الإمبراطور بنفسه إلى آسيا الصغرى واستولى على تيان ولحق بقفا الجيوش التدمرية وكسرها أول مرة في مكان قبل أنطاكية.

وفي حمص انكسرت الجيوش التدمرية كسرة كاملة وانهزمت راجعة إلى تدمر. ولحق بها أوليانوس إلى تدمر وحاصر زنوبيا في عاصمتها ولما رأت هذه عجزها اخترقت خطوط المحاصرين وانعزلت نحو الشرق لتطلب النجدة من الفرس، لكن لحقتها خيل أوليانوس على ضفة الفرات واقتادتها أسيرة إلى معسكر أورليانوس وبعد برهة سقطت تدمر (سنة ٢٧٢) وقيد الإمبراطور زنوبيا بسلاسل من الذهب

وسيرها مشياً وراء مركبته حتى روما. وفي روايات موثوقة أنها قضت بقية عمرها في رفاهية وراحة كاملتين في إحدى قصور تيبور.

ولما غادر أورليانوس بلاد الشام لم يترك في تدمر سوى حامية ضعيفة وهو ما أن وصل إلى أوروبا حتى ثار أهل تدمر فذبحوا الوالي والجنود الرومانيين. فأسرع أورليانوس بنفسه وجد السير حتى تدمر وترك جيوشه تنهبها وتدك أسوارها (سنة ٢٧٣) وهكذا قضى قضاءً كاملاً على ازدهار هذه المدينة الغنية وزال عمرانها.

إلا أنه رغم هذا السقوط ظلت تدمر محتفظة بشيء من فعاليتها التجارية وقد أحسن دير كلسيامن إليها بإشادة سور وبناء ثكنة. وفي عهد بوستنيانوس بنى فيها عدة مبانٍ تذكارية منها القناة التي جلبت بماء الشرب إلى الحامية الرومانية، كما أن أسواراً جديرة قد أقيمت على أنها كانت أضيق ساحة من الأسوار السابقة.

استولى خالد بن الوليد على تدمر (في العام ١٢ من الهجرة ٦٣٣ م). وفي سنة ١٢٨هـ/٧٤٥ جاءها مروان الثاني آخر خلفاء بني أمية وكان أهل تدمر خالفوا عليه فقتلهم وفرق الخيل تدمرهم وهم قتلى ودك كل حصونها. ولعلهم شيدوا غيرها بعد، لأن أبا الفداء يذكر تدمر بأنها بلدة صغيرة محاطة بسور وفيها قلعة وجاءتها في غاية القرن ١١ زلزلة فهدمتها.

وفي القرن ١٢ كان فيها جالية من اليهود وظلت تدمر مجهولة، لا يعرف الأوروبيون عنها شيئاً إلى أواخر القرن ١٧، فقد جاءها في سنة ١٠٨٩هـ/١٦٧٨ تاجران إنكليزيان من حلب واكتشفا أجزاءها وفي القرن ١٨ جاءها سياح افرنسيون وجاسوا خلال خرائبها مثل جيرو وسوته في سنة ١٧٠٥/١١١٧ وتور تشودي كرانجر سنة ١٧٣٥/١١٤٨، وجاء إنكليزيان فودو افكينس فمكثا في تدمر أسبوعين ورسموا مخطط الخرائب ورسموا أهم المباني الفخمة وقد نشرت نتائج تحرياتهم في رسالة كبيرة شرحها بعد عدة علماء وفنانون في ذلك العهد.

وفي القرن التاسع عشر ازداد عدد السائحين الذين كانوا يتهافتون على زيارة تدمر فمن مشاهيرهم ده فوكي وساشو وهوبر وأوتنيك وسوبر نهايم وكثير من أمثالهم. وقد جاء هؤلاء بكثير من المواد المتعلقة بتاريخ تدمر وكتاباتها.

وفي القرن ٢٠ أغنى الألمانيان بوشتاين وويفاند والإفرنسيان جوسن وسافينياك معلوماتنا عن تدمر وأخيراً بعد دخول الانتداب الإفرنسي.

وقد ذكر المتنبي تدمر حين تحصن فيها بنو عامر وكلاب من سيف الدولة ابن حمدان سنة ٣٤٤ هـ بقوله:

ولـيس بغـير تـدمر مـستغاث وتـدمر كاسمهـا لهـم دمـار

أرادوا أن يـديروا الـرأي فيهـا فـصبحهم بـرأي لا يـدار

وذكرها المعلم لبنيامين الطليطلي سنة ١١٧٢ وقال إنه كان فيها حينئذ ٤٠٠٠ يهودي وكانت من جملة الصور التي بتدمر صورة جاريتين من حجارة بقية صور كانت هناك فمر بها أوس بن ثعلبة صاحب قصر أوس فاستحسنها فقال:

فتـاتي أهـل تـدمر خبرانـي ألمـا تـسأما طـول القيـام

قيامكمـا علـى غـير الحـشايا علـى جبـل أصـم مـن الرخـام

فكـم قـد مـر مـن عـدد الليـالي لعـصركما وعـام بعـد عـام

جاء موريس ونو وهارالد انلوكد والبركابريل حضروا مخطط اكتشافات لتدمر أكثر انطباقاً على القواعد وتتابعت نشراتهم في هذا البحث.

الكتابات التدمرية: وجدوا في تدمر عدداً عظيماً جداً من الكتابات المحررة بلهجة سامية قريبة جداً من اللغة الآرامية التوراتية وأكثر هذه الكتابات مرفوقة بترجمة يونانية وبأسلوب أدبي نوعاً ما. وهذا ما سهل حل معانيها كثيراً. فالكتابات المذكورة مشتقة من الغباء سامية وتبدو مشابهة قريبة جداً للعبرانية المربعة والتواريخ المقروءة على الكتابات تبع عهد السلوقيين (غرة أكتوبر سنة ٣١٢ ق.م).

والكتابات القبورية كانت أكثر من غيرها عدداً، وهي التي أعانت على معرفة اللهجة التدمرية، والكتابات النجيلية أعانت على وضع تاريخ قسم من المباني الفخمة وأدت إلى الحصول على معلومات موثوقة من تاريخ تدمر وأساليب الحكم والإدارة التي كانت فيها، ثم الكتابات الدينية عرفتنا المعبودات المختلفة التي كان

يقدسها التدمريون كبعل المشابه لمردوك، وآجيول إله القمر وبرهيبول إله الشمس وكان هذا اللات يستجيب الدعاء وآثار كاتيس التي كان لها في هيرا بوليس (منج) معبد فخم واللات معبودة العرب العظمى وبعلسمين سيد السموات وساماس أو الشمس ومالاكبل رسول بعل، صادرانا واصله إيراني، وصاي القوم حافظ القوافل اعرزو وعزيز والهين صالحين للخير والبركة.

وفي متحف الهرميتاج في بتروغراد كتابة تدمرية ذائعة الصيت كانت اكتشفت سنة ١٨٨١/١٢٩٩ وعرفت بأنها تحتوي على (قانون جباية الأموال الأميرية)، فيها كثير من المعلومات الموثوقة عن الحياة التجارية والإدارية في تدمر ففيها معلومات عن نوع الغلال التي تنقلها القوافل وعن حالة القطعان وإدارة المياه والأملاح وإعاشة المدينة وكذلك عن امتيازات أعضاء مجلس الشيوخ ومجلس البلدية. وإلى هذه الكتابة يرجع الفضل في كشف القناع عن ما كانت عليه هذه البقعة التجارية الزاهرة، التي كانت تلتقي فيها القوافل القادمة من كل أنحاء الشرق الأدنى والمجتازة بادية الشام.

زيارة الخرائب: إذا أريد النقل بسهولة بين خرائب تدمر لابد من استصحاب واتباع المخطط المرسوم بجانبه. فإذا جاء السائح من دمشق يدخل تدمر من وادي القبور ( ) بينما المجاز القادم من بغداد يدخلها من شرقي الشمس (A) مخترقاً الحقول المزروعة ثمة.

وحيثما كان المجيء فالسور الخارجي للهيكل والحصن العربي الذي في غربي الهيكل يظهران من كل الجهات ويؤلفان أول نقطة الإشارة وثمة نقطة ثانية تؤلفها القلعة العربية المسماة بقلعة ابن معن الجاثمة فوق قمة الأكمة في الشمال الغربي.

وخرائب المدينة القديمة في تدمر فسيحة الامتداد جداً وأنقاضها منتشرة في أي مكان من هذا الانفساح على أنها قد اجتمعت خاصة بين هيكل بعل في الشرق وسفح الآكام في الغرب. ومن ذلك الحد الشرقي إلى الحد الغربي امتدت (شارع رئيسي) A. B. C قد ظهرت علائمها بوضوح من صفين من الأعمدة المطمورة التي لا يزال قسم منها منتصباً.

وثمة سور محصن بأبراج عديدة، هو من عهد بوستينانوس دون ريب قد دك حتى مستوى الأرض يحدد مساحة طولها كيلو مترين وعرضها كيلو متر وفي هذه المساحة

اكتظت أهم مباني تدمر الأثرية وهذه المساحة تقابل بكل وضوح مختصر المدينة القديمة التي كانت في القرن الثالث والتي ينبغي تحري حدودها الأولية في أماكن أبعد بكثير من سور بوستينانوس، ويظهر أيضاً أن الأسوار المنسوبة إلى زنوبيا تطابق آثار الأكمات المردومة الطويلة المستقيمة الخطوط التي تبرز بروزاً غير تام فوق سطح أرض الصحراء والتي تلحظ في الشمال وفي الجنوب في نقاط KK بقايا سور متماد ربما كان من توابع جدران الحصون البارزة ومن القرن الثالث. ومن المحتمل في القرن المذكور أن تكون القمم المجاورة لخرائب تدمر وخاصة الأكمة في الجبل الجنوبي الغربي والقمة المدورة g الحاملة للقلعة العربية (ابن معن) كانت تربطها بسلسلة من الجدران بالسور المحصن ومن الواضح أن العين الأصلية أو عين أفقا (Q في الغرب) كانت داخلة ضمن الحصون.

وفي جانب المدينة نفسها مدافن تبدو منها فوائد أثرية هامة فالقبور المختلفة الأشكال كثيراً، قد توزعت على مجاميع عديدة ووضعت مبتعدة بعداً كبيراً عن بعضها، ونحن ننصح أن يزور السائح بادئ ذي بدء القسم المتوسط من الخرائب. مبتدئا بهيكل بعل فمن سطح هذا الهيكل يمتد النظر على جميع خرائب تدمر ويحيط الناظر بوهلة واحدة بأوضاعها العامة.

هيكل بعل: كان هذا الهيكل مخصصاً إلى بعل، وهو إله من أصل بابلي والهيكل كان يتألف من قسمين: آ ـ من ساحة أمامية واسعة مربعة الشكل ٢ ـ ومن الهيكل الأصلي.

فالباحة الأمامية تذرع ٢٢٥ متراً في كل من جوانبها، وكان يحيط بها جدار ممتد مزين في خارجه قلدوه من الخارج بدعائم مربعة كورتينية وخرقوا في جبهاته الجنوبية والشمالية والشرقية بنوافذ مستطيلة الشكل تحمل أعلاها فرنتونات وعلى كل من هذه الجهات كان يمتد في داخل الساحة رواق كان سقفه مسنوداً بصفين من الأعمدة الكورتينية وفي الجهة الغربية كان الرواق الداخلي الأعلى من السابق لا يملك إلا صحناً أو سوقاً واحدة عريضاً بحيث عرضه لوحده كان يعادل عرض صحن الرواقات الداخلية وعلى هذه الجبهة الغربية، كان يوجد المدخل المؤلف من ثلاثة أبواب مجتمعة تحت الرواق وفوق درج فخم البناء، وكل هذا القسم من البناء

كان قد حور تحويراً شديداً حينما بنى العرب حصنهم الذي حجب الوضع القديم، وقد استعملوا وقتئذ في حصنهم هذا وبصورة مبعثرة جداً مواد البناء القديمة المقلوعة من الهيكل والمباني المجاورة له. ومن أراد الولوج إلى الساحة يدخل من باب هذا الحصن العربي.

وكانت هذه الساحة مكتظة بدور القرية وحينما كان سكان هذه القرية تحت رحمة غزاة البدو الرحل كانوا يجدون وراء الجدران العالية لهذا الهيكل معتصماً قوي الحفظ وظل هؤلاء يسكنون في هذه الدور حتى تقرر سنة ١٩٢٩ هدمها وإخلاء الساحة وإسكان أهل تدمر في الدور التي بنتها الحكومة السورية لهم في خارج القرية نحو الشرق الشمالي.

وحينما يجوز السائح باب الحصن العربي يلحظ فوراً الباب المركزي القديم، المؤلف من عضادتين وعتبة ضخمة منقوشة نقشاً بديعاً وقد كان هذا الباب متهدماً بالكلية وهو الآن في حالة يخشى عليها. ويمكن أن يجد المتحري على بقايا البابين الجانبيين في الدور الحديثة الملتصقة بالحصن.

وإذا ولج إلى داخل الساحة يسلك الشارع العام في القرية إلى أن يصل إلى الهيكل. وكان هذا الهيكل يتألف من ناووس مستطيل الشكل، عرضه أكثر من عمقه يحيط به رواق أمامي ذو أعمدة منفردة أو لم يبق من هذا الهيكل سوى جدران النائوس وأعمدة الجناح الشرقي للرواق المذكور والباب أو المدخل الفخم في الغرب مع عضادتيه المنتصبتين وعتبته وفرونتونه. ويلحظ على هذا المدخل الفخم بوضوح المزايا الخاصة بصناعة الحفر والنقش الزينية ولاسيما تلك الصناعة التي مثلت بها أغصان الكرمة وبأوراقها وعناقيدها، ومدت على شكل زخرفي ذي أغصان مقلوبة.

ووضوح هذه المزايا هنا بارز أكثر مما على باب الحصن العربي وقد تلاشى سقف الناووس وبنوا في قسم من سطحه مسجداً ليس له أي مزية. ويمر الزائر من المسجد ليصل فيما بعد إلى الشمال إلى ساحة سماوية يوجد فيها عناصر الديكتور المعتنى بها أكثر من غيرها وهي كالكوى والأعمدة المخرمة من فوق إلى تحت، دعامات أبواب طافحة بالزخارف، سقوف ذات قسائم مزخرفة وقبيبات، يظهر فيها

إشارات الفلك أو منطقة البروج، لكن هذه الإشارات مشبوهة جداً ويا للأسف وفي جدران النائوس أحدثت مجارٍ عميقة على يمين الوصلات (اللزاقات) العمودية وذلك بقصد البلوغ إلى الرصاص المستعمل لأجل تمكين البناء. ويتسلق الزائر الدرج الذي في الجهة الشمالية الغربية الصاعد إلى ذروات الجدران. وهنا يتمكن من الإحاطة بادئ بدء من أوضاع الهيكل كله، فيرى أن الرواقات التي كانت تستند على الأعمدة قد رسمت ونصبت بأعمدة كورنثية نشأت تظهر للرائي فوق أسطحة الدور. وفي النظرة الأولى في الغرب تنفصل ذروة الباب الفخم الكبير للرواق الأمامي الذي في مقدم البناء مع فرونتونه المثلثي الشكل وفي الشرق أعمدة الرواق المذكور الباقية على انتصابها، تظهر فيها أبدانها المخرمة بخطوط من فوق إلى تحت، وقد كانت هذه الأعمدة تحمل تيجاناً كورنثية معدنية ليس لها الآن أي أثر ولا ريب أن هذه التيجان كانت مؤلفة من تطبيق البرونز المندمج على أحجار مزخرفة لم يبق أي أثر من ديكورها هذا.

أما الساحة نفسها فقد كانت مبلطة ومن المحتمل جداً أنه كان فيها مبانٍ فخمة عديدة (التقطت كثير من الكتابات من سور الهيكل، إلا أن واحدة منها فقط كانت تعود لبنائه. وقد ذكر فيها أن سماوات كانت رفعت ونصبت على شرف اثنين من وجهاء تدمر اللذين كانا أهديا الهيكل ستة أبواب من البرونز وضعا في رواقه الكبير. ولا ريب في أن الكتابة تعنى تلك المصاريع الستة التي كانت تغلق الأبواب الثلاثة الخارجية في الغرب وتاريخ تقدمة هذه الهدايا في مارس سنة ١٧٥، لكن هذا التاريخ متأخر كثيراً عن بناء الهيكل لأن كتابة شرقية أخرى تذكر تاريخ وضعها أنه في سنة ١٧، ومما لا ريب فيه أن هذا الهيكل شيد خلال السنين الأولى من عهد النصرانية، إلا أنه كان يتحول أو كان على الأقل يزخرف ويجمل مراراً بفضل الهدايا والتقادم، كما تدل عليه جملة وافرة من الكتابات الممتدة تواريخها من سنة ١٧ إلى سنة ١٦٧، وتدل عليه التقادم من الأنصاب المرفوعة لذكرى الأغنياء التدمريين الذين وضعوا أسس الأضاحي، أو قدموا إلى الهيكل نذوراً ثمينة).

صف الأعمدة أو الشارع الأعظم: وإذا خرج الزائر من الهيكل من بابه الغربي، يتوجه نحو القوس الكبير، متتبعاً صف الأعمدة الذي يمتد على طول ١١٠٠ متر ويؤلف الشارع الأعظم الأساسي للمدينة وصف الأعمدة المذكور يتألف من ثلاثة أقسام تنفصل عن بعضها حسب زوايا كثيرة الإنفراج، فالأول يبتدئ في جوار هيكل بعل ويمتد حتى القوس الكبير (رقم ٩) والثاني يذهب من القوس الكبير حتى مكان الأعمدة الأربعة (٢٢)، والثالث من الأعمدة المربعة حتى قرب هيكل المدافن (٣٠).

المسير من هيكل بعل إلى القوس الكبير: من المحتمل أن صف الأعمدة الكبير كان مبنياً في كل امتداده على نسق واحد إلا أنه في القسم الأول من هذا المسير يرى الزائر أنه لم يبق من الصف المذكور سوى أسس الصف الغربي (٨ ـ ٩) ومعظمها قد سترته الرمال. وبعد مئة متر من القوس الكبير كان ينفتح بَهْو مكالمة فسيح ذو كراسي (٧)، وعلى امتداد أبدان الأعمدة بروز خفيف كان يقوم عليه، فوق أربع قواعد مربعة قوية لا تزال ماثلة في مكانها، أربعة أعمدة قطرها ١,٣٠ متراً، وعلوها ١٢,٧٠ متراً وهذه الأعمدة لا تزال تيجانها وقطع أبدانها الأسطوانية مصروعة على الأرض، كما صرعت أيضاً أقسام الإنتابلجان المختلفة. وهنا يلحظ خاصة أفاريز مزينة (دكوره) على وجهاتها الأربع أوراق شجر السنديان وأثماره (بلوطة) ومن المسافات الثلاث التي ما بين الدعائم ـ المؤلفة على النحو المذكور ـ الوسطية منها هي أعرض من التاليتين، كانت تذرع ٨ أمتار طولاً أي بقدر قطر بهو المكالمة الذي تقدم ذكره والذي توجد أسسه تحت الرمال.

ويحتوي القوس الكبير على فجوة مركزية انحناؤها نصف دائرة، على جانبيهما قوسان أصغر منها فوقهما كوات ونقاط امتداده قد شيدت تبعاً حسب تصميم مثلثي الشكل، وذلك نتيجة تغيير استقامة الشارع ومداميكه الداخلية قد نحتت إلى عمق وافر، وقمته قد خرب معظمها، لكن هو في مجموعة ذو نسب متناسقة جداً وله خيال في السماء مرثي وارتسامات جديرة بالإعجاب، وحبذا لو يبنون ثانية فوق القوس المركزي فرونتوناً مثلثي الشكل لا تزال بعض قطعه على الأرض.

وبناء هذا القوس يعود فيما يظهر إلى القرن الثاني الميلادي. وفيه براعة معتنى بها جداً ونقوشه البنائية تظهر اختلافات جمة تتباين كثيراً في مواضيع قد اتخذ منها أطرزة قد ألفت تأليفاً غاية في الإتقان وأخص ما يلفت النظر منها تلك التي تزين الدعائم والقصور والأقسام المنحنية.

المسير من القوس الكبير إلى الأعمدة الأربعة: في هذه المسافة كما في التي تليها لا يزال عدد كبير من الأعمدة منتصباً، أكثرها ما زال يحمل كل الآنتاجمان ويلحظ هنا بسهولة كيفية امتداد وتنظيم هذا الشارع وبموازاة كل من خطوط الأعمدة يظهر في الشمال وفي الجنوب أسس جدار ممتد وعلى هذا فإن صف الأعمدة الكبير في تدمر كان يحتوي في وسطه على طريق معبدة مكشوفة عرضها ١١ متراً بين الأعمدة ويحتوي في جانبيه على ممرين عرضهما ستة أمتار مغطيان بسقوف. هذه النقطة الأخيرة لا تحتمل الريب. لأن التجاويف التي تدخل فيها الجسور مازالت ماثلة للعيان فوق عمائم الأعمدة الأنتابلمانات الباقية في مكانها وقد كانت الحوانيت والمباني العامة مشيدة تحت هذا الممر المسقوف.

والأعمدة من الطراز الكورنثي قطرها ٩٥ سنتمتراً وعلوها مع القاعدة والتاج ٩,٥ متر وعلى أبدان كل منها وفي الوسط يبرز قونسول ذو زخارف بارزة، وهو مخصص إلى وضع نصب كما يدل على ذلك كثير من الكتابات النذرية التي تحتها وهذه الأنصاب كانت تقام على شرف الشخصيات العالمية والقضاة وحتى أبناء العامة الذين كانوا يبنون على نفقتهم بعض أقسام ما بين أعمدة الرواقات الطاقات، وعلى بعد مئة من القوس الكبير كان يقف أربعة أعمدة من حجر الغرانيت ذات أبدان مؤلفة من صخر واحد (رقم ١١) ولا يزال ثلاثة منها ممددة على الأرض. علو كل منها يختلف عن الآخر من نصف متر ولو أن أقطار قواعدها متماثلة ١,١٠ متراً ولكن تيجانها الكورنثية تمتد على أفقية واحدة وقد عوضوا اختلاف مستوى قواعدها تصحيحات عملت فوق أنسب الزخارف البارزة للقواعد.

مما لا ريب فيه أن هذه الأعمدة الغرانيتية قد استعملت مراراً، وإذ كان حجر الغرانيت الصالح للأعمدة لا وجود له في بلاد الشام أصلاً، ينبغي أن نقبل بأنها قد

جلبت من مكان بعيد جداً، ومن المحتمل جداً أن يكون من مصر مهما كان هذا الظن بعيد التصديق، باعتبار أن ثقل كل منها لا يقل عن عشرين طناً.

وكانت هذه الأعمدة الأربعة تؤلف رواقاً، تغطي ممراً إلى بناء فخم ساحته المتوسطة كانت محاطة برواق أمامي كورنثي ذو أعمدة منفردة (١٢) وبعض هذا الرواق منتصب ولكن ليس في الإمكان الآن أن يثبت ويعين أوضاع هذا البناء ولا الغاية التي كان مبنياً لأجلها.

وإذا عاد الزائر إلى الشارع العام واستمر سائراً فيه نحو الغرب، يمشي في الجنوب بمحاذاة صف الأعمدة الخاص بالمسرح (١٣) وسيأتي ذكره ثم يستمر في سيره فيرى في الشمال مجموعة أعمدة التي وإن كانت ممتدة في استقامة الرواق الجاري، لكنها كانت تعود إلى تراتيب مختلفة. واثنان من أعمدة هذه المجموعة ذات أقطار خارقة للعادة وعمود آخر منها (٢٠) يحمل عموداً أصغر منه يدل على أن بناء ذا طابقين كان مشيداً في هذا المكان، وفي هذا الموقع كما في غيره أيضاً من الضروري أن تجري حفريات عميقة حولية لتثبيت المخطط الصحيح للمدينة القديمة.

وثمة كتابتان ذات سطرين، هما تقدمات لأنصاب يوليوس اولئوس زابد يلاد والملك أذينة، تدلان على أن هذا القسم من صف الأعمدة انتهى في عام ٢٤٢.

أما التتراييل البناء ذو الأعمدة الأربعة (٢٢) فهو لم يبقَ منه إلا أربع دعائم ضخمة لا تزال واقفة وإلا بعض أقسام المداميك العليا. وهذه فيما يظهر قد اندكت بتأثير زلزلة هائلة فاستلقت على الأرض.

إذا فحص الزائر بإمعان هذه الأنقاض يستنتج أن التتراييل قد نال ترميماً فهو كان يتألف من أربعة بيلونات وجهات ضخمة مربعة القطع، مؤلف كل منها من أربعة أعمدة كورنثية من الغرانيت. موضوعة على زوايا القواعد المنفردة وكانت هذه الأعمدة تحمل أنتابلجان (عمامة) مزينة زينة غنية بالأغصان المقلوبة والحلزونية وفي وسط كل من القواعد المنفردة للأساس كان يوضع تمثال وتوجد آثار أقدام هذه التماثيل على ثلاثة من المساند الصغيرة الأقل تشويهاً وكسراً.

وثمة أربعة بيلونات كانت قائمة على زوايا سطح مرتفع مربع الشكل ذرعه في كل جهة ١٨ متراً، وكان لها مداميك عالية منتظمة، قد طرق الآن بالكلية تحت الرمال (الساعة ١٢ في ٣٨/١٢/٢٢ الرقمية).

المسير من التترابيل إلى هيكل المدافن: ليس في هذه المسافة شيئاً ممتازاً سوى بهو المكالمة (٢٧) في جنوبه والأعمدة المذكورة وقبل الاستمرار في الزيارات ينبغي التجوال بادىء بدء في حي المسرح.

من الهيكل المحاط بأعمدة منفردة (١٠) لم يبق سوى المداميك السفلى ومما لاريب فيه أنه كان محاطاً بـ (؟) وثمة عمودان مازالا منتصبان في الجنوب كانا يخصان المدخلة الفخمة، والمسرح (١٣) كان ذا اتساع عظيم ومكان الأوركسترا والقبو قد انطمر بالكلية تحت الرمال، ولكن مكان التمثيل حفظ أقساماً هامة من أجزائه العليا وثمة سكة عريضة كانت تحيط بالمسرح.

كما كان المسرح محاطاً أيضاً بأروقة بعضها مدورة (١٤) كان فيها حوانيت باعة، وبعضها مستقيمة الخطوط (١٩) لا يستطاع الآن في حالتها الحاضرة معرفة أوضاعها وكان ثمة شارع محاط بأروقة (١٥) ينتهي بقوس كبير (١٧)، ثم رواق آخر (١٩) ذو بناء متقن جداً كان يحصن فيما يظهر الباحة المتوسطة لبناء عمومي أما الساحة الفسيحة (١٨) المحاطة بجدار ممتد، كان يحمل رواقاً داخلياً، وقد كانت هذه الساحة فيما يظهر متصلة بالساحة البلدية العامة التي يظهر منها في الشرق ملحق ويوجد في أنقاض الجدار (١٦) مثالاً ممتازاً من أفعال الزلازل الأرضية.

وإذا عدنا نحو التترابيل، يتأكد أنه كان مبنياً على مصلبة وأن شوارع متعامدة، كانت تتفرع في هذه النقطة على صف الأعمدة المتوسط. وهكذا فإن صفاً من الأعمدة المنتصبة حتى الآن (٢٣) كان يخص فيما يظهر جادة مغطاة تنتهي بالتترابيل وصف آخر لا يكاد يلحظ إلا من رسومه كان يمتد فيما يظهر أيضاً نحو الشمال (٢٥).

الحي الجنوبي الغربي - إذا طاف الزائر بهذا الحي قادماً من المسرح، يتحقق لديه أنه ليس ثمة في تلك المساحات الشاسعة فوق الأرض، سوى القليل النادر من الأنقاض الأثرية وبكل صعوبة تتراءى للممعن هنا وهناك آثار صفحة أعمدة

متصالبة (٦٢) أو رواق أمامي لبناء (٦١) تبرز من بين الرمال ومع هذا يمكن الاستدلال بأن كل هذه البقعة كانت مقسمة إلى جزيرات، ذوي مساحات مختلفة بواسطة حزمة من الدروب المتوازية كل الموازاة وعمودية على استقامة الشارع الأعظم.

وفي الغرب الأقصى من ساحة الخرائب يمتد حي ممتاز، له خصائص لذاته. فهو منفصل عن الحي المتقدم ذكره بشكل ساحة (٣٣) ذرعها ٢١٠ أمتار في ٢٠ متراً، يحدها من كل جهة برواق، وكانت تنتهي في الجنوب على ما يظهر بنوع من الساحات أو نقطة مدورة، كما تدل على ذلك الأعمدة المصطفة على شكل قوس دائري وهي لا تزال منتصبة (٣٤ ـ ٣٥) ويظهر أيضاً أن هذه الأروقة متقدمة في تاريخ بنائها عن أروقة صف الأعمدة الكبير فالكتابات النذرية التي عليها تحوي تواريخ سنة ١١٠ و ١٧٠م.

وبعد الساحة المذكورة (٣٣) يوجد غرفة واسعة ذات الأضلاع الكثيرة غير المنتظمة وهي محاطة بجدار دفاع محصن بأبراج وثمة قد تراكمت أنقاض أثرية تراكماً مختلطاً كل الاختلاط ويوجد بين هذه الأنقاض موقع قوس كبير بعض قطعه المنحنية قد انطرحت على الأرض (٣٧) وكان هذا القوس ينفتح في سور ممتد. وكان هذا السور يحيط ببناء غريب الشكل جداً (٣٦) ينسب بناؤه إلى ديوقلسيانوس، عرف ذلك من كتابة لاتينية عثر عليها في هذا المكان. وهنا يمكن تمييز الوضع العام بسهولة فقد كان في ذروة درج عريض مختص بالمآثر قد شيد رواق كورنثي فوق سطح مثلثي الشكل وقد كان هذا الرواق يتفق مع بهو متوسط ينتهي نحو الغرب بنوع من المنايا نصف دائرية.

وفي جنوبي هذا البناء (٦٣) كان يخزن أحد نبعي الماء في تدمر، المسمى بعين السراي (سيأتي ذكرها). ولأجل هذا الخزن كانوا حفروا بئراً عمقه ثمانية أمتار يتصل بسرداب ينفتح في بهو واسع ولاحظ أحد الفرنسيين المسيو كارل (في كتابة الإدارة الزراعية والصناعية للماء في بلاد الشام، باريز ١٩٢٣ ص ٥٨) في ذلك السرداب فجوات محفورة في الجدران وآثار سطح مائل للاتصال، وشاهد أيضاً آثار مكان لصيد السمك.

حي الشمال الغربي: إن الساحة (٣٣) التي تقدم ذكرها تتصل في الشمال مع صف الأعمدة الكبير (٢٩) وفي محور الشارع كان قائماً هيكل مدفني (٣٠) لا تزال ستة أعمدة لرواقه الأمامي ذوي فرونتونات مثلثية منتصبة وكذلك إحدى الدعائم المربعة حول الباب والمزخرفة بالأوراق والورود وثمة بناء مجاور (٣٠) كان يظهر أنه كان مخصصاً لنفس الغاية (٣١) إلا أن كل ذلك قد اندكت أنقاضه وكسوره بعضها فوق بعض وأصبحت بحاجة للرفع والتفريق كيما يمكن معرفة وضع المراد من تصميم البناء.

وجدار يوستيا نوس القريب إلى هنا، يستند على مجموعة أبراج مدافن (٧١ - ٧٦) يظهر أن بناءها متقدم التاريخ على بناء السور فأحد هذه الأبراج (٧٥) مازال محتفظاً ببقايا هامة من زخارفه الداخلية، لاسيما صورتين مجنحتين من النقش البارز.

وإذا تقدم الزائر نحو الشرق يطوف في حي تكاد تكون في مستوى الأرض تماماً، لولا أنه يمكن تمييز رسوم الشوارع القديمة ويلحظ بالتتابع ست جزائر عرضها ٢٦,٥ متر منفصل بعضها عن بعض بشوارع عرضها ٤,٣٠ متر ثم يلحظ جزيرة طولها ٥٣ متراً تتبعها جزيرتان أخريان وكذلك عرضها ٢٧,٥ متراً وأخيراً جزيرتان عرضهما ٥٣ متراً، وإذا ابتعد نحو الشرق يتعذر عليه جداً أن يعثر على الخطوط الكبيرة لتصميم المدينة.

وعلى كل حال، لا ريب في أن الذين خططوا هذه البقعة قد قبلوا رسم الشوارع على أساليب معينة تشبه ما عمل في المدن الكبيرة في آسيا الصغرى كيريان (قرب ازيد) وافسس (كذا) التي كان فيها معبد ديانا وسيندا وغيرها، حتى أن الإسكندرية كانت أوضاعها نحو ذلك. وكذلك الحال في فيلادلفيا (عمان) وجرانا (جرش) وأفاميا (قلعة المضيق) ودورا أوروبس (الصالحية على الفرات)..

وكانوا قد شيدوا في هذا الحي دوراً خاصة لتصاميمها قرابة شديدة مع دور بلاد اليونان. وكل من مجموعة الأعمدة التي لا تزال منتصبة في هذه البقعة كان خاصاً بالرواق الأمامي المحيط بالباحة المتوسطة لاحد الدور (٣٨ و ٣٩ و ٤٠ و ٤٥) وتحت هذا الرواق الأمامي كانت تنفتح الغرف المختلفة للمسكن، وهنا أمور جديرة

بالملاحظة رواق مضاعف على إحدى وجهات باحة (٣٩) أو رواق أمامي ذو أعمدة يشبه ما في جزيرة رودس (٤٥)، وأحد أجنحة هذا الرواق أعلى من الأجنحة الثلاثة الباقية.

ولنذكر أيضاً موقع كنيس يهودي (٤١) عرف من الكتابات العبرية التي على عتبة بابه ظلت وحدها في المكان، وهناك كنيستان نصرانيتان (٤٢ و ٤٣) بنيتا حسب تصميم بازيلياس ذي ثلاث حنايا، وفي الكنيسة الكبرى (٤٢) كايللا أو ملحق كان يحمي نواويس بضعة شخصيات مقدسة.

هيكل بعلسمين (٤٨) قام على بعد ٢٥٠ في شمال التترابيل وهو لا يزال على بعض سلامته، وقد شيد على شرف بعل سمين (رب السموات)، ولا ريب أنه ناب عن هيكل أقدم منه كان مكرساً للرب المذكور. وهيئته الحاضرة تعود على ما يظهر من إحدى الكتابات المنقوشة عليه إلى تاريخ ١٣٠ ب. م ومدخل هذا الهيكل مزين بأعمدة، ومن هذا الشكل يتألف نائوس مستطيل الشكل تقدمه في الجهة الشرقية رواق أمامي ذو ستة أعمدة أربعة منها في الجبهة، وربما كان هذا الهيكل محاطاً بسور مقدس.

الحي الشمالي الشرقي: إن البقعة الشمالية الشرقية تخفي تحت رمالها عدداً عظيماً من كسور المباني القديمة، وهذه الكسور ذات أشكال جد مختلفة وذات نفع ضئيل. ويصعب جداً تعيين التاريخ والغاية من أحد هذه المباني، وهو مستطيل الشكل وواسع نوعاً ما (٥٢) ولعله مستودع ذخائر أو ثكنة جنود أقيمت في جوار سوريو ستينانوس وثمة عمود نذري سامي الارتفاع لا يزال منتصباً (٥٣) يحمل تاريخ سنة ١٣٩ ب.م وثمة أيضاً بقايا الدور ذات الأرقام ٤٩، ٥١، ٥٦، ٥٨ وبقايا الأروقة ٥٤ التي كانت تحادد المستودعات أو الحوانيت ٥٥ تظهر هنا وهناك، والأرض في هذه البقعة قد حفرت وبعثرت إلى عمق وافر في عدة أماكن بقصد إنشاء بساتين، وحيثما تبدأ الزراعة فالأنقاض الأثرية تصبح نادرة جداً.

عين السريا (٥٠) هي العين ذات الطعم الكبريتي الخفيف التي تسيل ينهل منها سكان تدمر وقد اتصلت بنقطة الخزق (٦٣) الكائنة في جنوبي بناية ديوكلسيان وقد قدمنا البحث عنها، واتصالها هذا من طريق قناة تحت الأرض ذات فتحات أو

كواكب مكشوفة وليس لهذه العين أي نفع، إلا أنه يرى فيها وخاصة قرب الغروب زحوف البدويات والقرويات الملتحفات بأزر ذات ألوان متنوعة، يأتين لإملاء جرارهن الخزفية من العين.

سور يوستنيانوس - إن ما يمكن ملاحظته في البقية الباقية من هذا السور المحصن (٦٦ - ٧٦ - ٨٠ - ٨٣) هي أن تاريخه يتفق مع القرن السادس المنسوب إليه، فسجف الخط الدفاعي في هذا السور يتألف من جدران مستقيمة الخطوط تتلاقى بزوايا منفرجة. وكانت كل زاوية محصنة من جهتيها بأبراج خاصة نصف مدورة، كان يقوم ما بينها أيضاً أبراج قائمة الزوايا، وثمة أبراج نصف مدورة كانت أيضاً تحمي الأبواب في الشرق والشمال والجنوب (٦٦، ٦٧، ٦٨، ٨٢) وقد استعملوا في بناء هذه الحصون عدداً عظيماً من القطع المنقوشة أو المزخرفة المنقولة من أماكن أخرى متهدمة، وفي الغرب يستند سجف الخط الدفاعي على أبراج مدافن (٧٠ - ٧٦) تاريخها متقدم.

الحي الجنوبي - وكلما ابتعد الزائر عن سور يوستينانوس وتقدم نحو الجنوب يتناقص عدد الأنقاض الأثرية، إلا أن تدمر القديمة كانت تمتد أيضاً في هذه البقعة، كما يدل على ذلك رسوم بعض المباني الاكثر بروزاً فيها (٨٤، ٨٥، ٨٦) وكان ثمة عمود نذري سامي الارتفاع، قد انطرحت على الرمل قطع من بدنه وانطرح تاجه، وكان يحمل كتابة تقدمة مجلس الشيوخ تاريخها ١٣٩.

وحول العين الكبرى أو عين أفقا وقد تقدم ذكرها يمتد على الأرض بعض قطع من أبدان أعمدة وبعض قطع مزخرفة وربما كان في تلك العهود عدة مبانٍ قد شيدت في جوار هذه العين.

وهذه العين تستحق الزيارة، لأن كمية مياهها الدافقة غزيرة تتدفق بانتظام (١٥٠ ليتراً في الثانية) وينفجر الماء من الأرض من قعر كهف طوله أكثر من مئة متر، وينبعث من هذه المياه رائحة خفيفة لغاز الهيدروجين المكبرت وحين خروجها من الكهف تدور رحى ثم تسيل بتعرج بين الحقول إلى أن تغور بعدها في الرمال.

المقابر - إن القبور التدمرية ذات أشكال عدة مختلفة فمنها الهياكل القبورية ٢ - القبور ذات الباحات المتوسطة ٣ - الأبراج القبورية ٤ - المغاور القبورية. وهذه المقابر

تتوزع على أربعة مجامع أصلية وأهمها تمتد على طول طريق دمشق وتحتوي على هياكل وخاصة على أبراج قبورية ومجموعة ثانية تحتوي على أبراج ومغاور قبورية لاسيما تلك التي حفرها المسيو أنكولد سنة ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥، ومجموعة T تحتوي فيما عدا ذلك على بيت مقبري. والمقبرة الشمالية الغربية U - V تتألف من هياكل وأبراج قبورية أكثرها سلامة هي التي في داخل سور يوستينانوس وسنستعرض هذه الأنواع المختلفة التي فيها فائدة.

المقبرة T إن البيت المقبري يحتوي على باحة متوسطة مربعة محاطة برواق أمامي له اثنا عشر عموداً منفرداً لا تزال قواعدها وقطع البدن السفلية ماثلة في الأرض، وثمة ستة مبانٍ ضخمة موزعة حول البيت تحتوي في الجملة على ٣٨ تجويفاً كانت مخصصة لدفن الموتى.

والأضرحة (النواويس) المتجمعة على أرض المدخل حصلت من المكان المقبري المجاور، الذي نقبه الكابتن دوفو والناووس الذي في الكوة (الصدرانية) هو الوحيد الذي كان عائداً في بادئ الأمر إلى الضريح، وباب المدخل كان مؤلفاً من مصراعين حجريين مزينين في أعلاهما زخارف، وهما لا يزالا سالمين في معظمهما، والباب كان ينفتح تحت مكان مغطى محمول على عمودين ويظهر أنهم استعملوا لبناء هذا القبر الرواق الأمامي لأحد البيوت.

المقبرة: قبر الأخوة الثلاثة (٨) يوصل إليه من باب مستطيل الشكل كان مغلقاً، بمصراع من الحجر المزخرف (في الداخل يحتوي القبر على بهو متوسط. وعلى جانبيه بهوان جانبيان وشكل المجموع يحد مساحة حرة شكلها كحرف عليها عقد دائري، وفي امتداد الحواجز ستة صفوف من التجاويف بعضها فوق بعض كان يوضع فيها أجساد الموتى. والعقود مبنية بالآجر ومستورة بطلاء من الكلس وكذلك الحواجز والبهو الجانبي الذي على يمين الداخل يحتوي على بقايا ثلاثة نواويس جميلة قد شوهت كثيراً.

وأكبر فائدة لهذا القبر هي في زينته المؤلفة من رسوم ملونة قريبة لبهو المكالمة الممتد في منتهى البهو المتوسط تحتوي على رسوم كثيرة مختلفة الأوضاع. وفي داخل بهو المكالمة المذكور قامت دعامتان عريضتان. وفي وجهة كل منهما قد رسمت

صورة امرأة واقفة. وفي الوجهتين الجانبيتين امتدت زخارف على شكل أغصان وأوراق، ومن بينها ينفصل أشكال غريبة ويميز منها سيف، ومسامير وطيور وحية وعقرب، وهذه للحراسة ضد إصابة العين.

والحقول العمودية التي تفصل التجاويف هي أيضاً مطلية والأشكال الغريبة المذكورة قد رسمت في كل منها وفي قسمها الأسفل، ساحة صيد أو طيور وفي قسمها الأعلى حلقة مستطيلة الشكل قد نقش فيها شكل معين، وأخيراً صورة مجنحة واقفة على كرة وسواعدها المرفوعة تحمل مدالياناً مدوراً وفي المداليونات قد رسمت صور مختلفة للرجال والنساء.

والعقد مكورة بشكل سداسي الأضلاع أزرق وبزخارف على شكل الورود المذهبة.